رثاء الصنوبري لأمه

(أدب عربي)

د/ عبد الله رمضان
قسم الأدب والنقد
كلية اللغات – جامعة المدينة العالمية
شاه علم - ماليزيا
arharidy@gmail.com

خلاصة— هذا الموضوع يتناول مقاطع من رثاء أبي بكر الصنوبري لأمه، وهو من شعراء القرن الرابع الهجري.

الكلمات المفتاحية: أبو بكر الصنوبري، الرثاء، القرن الرابع، الشام، المراثي، البكاء.

I. *المقدمة*

رثى أبو بكر الصنوبري والدته رثاء يسير في على طريقته المعجبة من الوصف، وخصوصا وصف الرياض والبساتين، فضلا عما تخلل هذا الرثاء من حكمة وموعظة وعبرة.

II. موضوع المقالة

رثى ابن الرومي[١]أمه بقصيدة تربو على مائتي بيت، ومطلعها:

أَفِيضَا دَمًا إنَّ الرَّزَايَا لَهَا قِيَمْ فَلَيسَ كَثيرًا أَنْ تَجُودَا لَهَا بِدَمْ[٢]

وهو مقدم زمنيا على الصنوبري الذي رثى أمه بقصيدة متميزة.

يقول الصنوبري في قصيدته:

قَدْ صُوِّحَتْ رَوضَتِيَ المُونِقَةْ وانْتُزِعَتْ دَوْحَتِيَ المُورِقَةْ[٣]

فالأم عنده روضة مونقة لكنها يبست بموتها، وهي دوحة مورقة لكنها انتزعت منه، وهو في تشبيهه لأمه بالروضة متأثر بمنهاجه العام في شعره الذي يسيطر عليه وصف الرياض والبساتين والأزهار والأشجار[٤].

والأم بالنسبة لأي إنسان طريق وسبيل من سبل الوصول إلى الجنة، والجنة تحت أقدامها كما في الأثر: "الجنة تحت أقدام الأمهات"[٥]. وهذا الأثر الديني

---

(١)مولده سنة إحدى وعشرين ومئتين ومات لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وقيل سنة أربع. سير أعلام النبلاء – أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي – تحقيق: شعيب الأرناؤوط، محمد نعيم العرقسوسي – ط ٩ (مؤسسة الرسالة بيروت – ١٤١٣ هـ) ج ١٤ ص ٤٩٦.

(٢)ديوان ابن الرومي – شرح وتحقيق: عبد الأمير علي مهنا (منشورات دار مكتبة الهلال – بيروت –١٤١١هـ. ١٩٩١م) ج٦ ص ٦٤.

(٣)ديوان الصنوبري (من حرف الراء حتى القاف) تحقيق إحسان عباس (دار الثقافة – بيروت-١٩٧٠) ص٤٤٢.

(٤)عن ولع الصنوبري بالطبيعة يقول آدم ميتز: "كان الصنوبري ... أول شاعر للطبيعة في الأدب العربي يجمع إلى ذلك ولوعا شديدا بالسماء والضياء والهواء مع التطلع إلى أسرارها الجميلة". الحضارة الإسلامية في القرن الرابع – آدم ميتز – ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة. ط٢ (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة- ١٩٤٧م)ج ١ ص٣٦٧.

(٥)رواه " أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم عن معاوية بن جاهمة السلمي أن جاهمة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك، فقال: هل لك من أم؟ قال: نعم، قال: فالزمها فإن الجنة تحت رجليها. قال الحاكم صحيح الإسناد، وتُعُقِّبَ بالاضطراب، وأخرجه ابن ماجه أيضا عن معاوية بن جاهمة قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله، إني كنت أردت الجهاد معك أبتغي بذلك وجه الله والدار الآخرة، قال: ويحك! أحية أمك؟ قلت: نعم، يا رسول الله، قال: فارجع فبرها ... وفي الباب أيضا ما أخرجه الخطيب في جامعه والقضاعي في مسنده عن أنس رضي الله عنه رفعه: الجنة تحت أقدام الأمهات ... والمعنى أن التواضع للأمهات وإطاعتهن في خدمتهن وعدم

والموروث الإسلامي يتضح جليا في رثاء الصنوبري؛ حيث جعل أمه - ويعني على ما أفهم البر بها - مدخلاً من مداخل الجنة:

بَابٌ إلى الجَنَّةِ وَدَّعْتُهُ مُنْذُ رَأَيتُ المَوتَ قَدْ أَغْلَقَهْ[٦]

فأمه باب من أبواب الجنة لكنه ودع هذا الباب منذ أن أغلقه الموت فحال بينه وبينها.

ويخاطب الشاعر أمه راجيا ألا يبعد مثواها عنه لكن الحقيقة أنها بعيدة عنه جدا لأنها في عالم آخر وإن كان ثراها قريباً منه:

لا يَبْعَدَنْ مَثْوَاكِ يَا أُمُّ مَا أَبْعَدَ مَثْوَاكِ ومَا أَسْحَقَهْ

ويقرر الشاعر حقيقة طالما قررها الشعراء في رثائهم؛ وهي أن الموت حق ووعده صدق:

قَدْ صَدَّقَ المَوتُ الَّذِي لَمْ أَزَلْ أَحْذَرُهُ فِيكِ وَقَدْ حَقَّقَهْ

ومن الأشياء المميزة في رثاء الصنوبري لأمه وصفه لمرضها الذي ماتت فيه، وكذلك وصفه لحظة احتضارها، فأمه على الرغم من ضعف جسدها حملت الآلام والأسقام، وكان ذلك يهزه من أعماقه ويجدد أحزانه:

يُقْلِقُ أَحْشَائِي عَلَى مَضْجَعِي تَذَكُّرِي أَحْشَاءَكِ المُقْلَقَهْ

وَحَمْلَكِ السُّقْمَ وَأَعْبَاءَهُ فِي جَسَدٍ أَضْعَفَ مِنْ بَرْوَقَهْ

للهِ أُمٌّ مَا بَنِي حُزْنُهَا مُجَدِّدًا أَحْزَانِيَ المُخْلَقَهْ

كَمْ أَوْدَعَتْ أُذْنِيَ مِنْ أَنَّةٍ تُودِعُ قَلْبِي جَمْرَةً مُحْرِقَهْ

وَمِنْ تَشَكٍّ كُنْتُ أَولَى بِهِ أَسْهُمُهُ فِي كَبِدِي مُطْلَقَهْ

أَقُولُ والأَنْفَاسُ قَدْ صَاعَدَتْ فِي الصَّدْرِ مِنْهَا وَهْيَ كالمُطْرِقَهْ

يَا لَلْمَنَايَا كَيفَ أَنْجُو بِهَا مِنْ كَرْبِهَا وَهْيَ بِهَا مُحْدِقَهْ

إننا في هذه الأبيات بإزاء توحد وتماهٍ بين الشاعر وأمه، فكل أنة وكل آهة من الأم تمزق جسد الابن، فحزنها يجدد أحزانه التي كانت قد ضعفت وأوشكت على الانتهاء، وأنتها تودع قلبه جمرة محرقة، وتشكيها له أسهم مطلقة في كبده، ثم تأتي لحظة النهاية عندما تتصاعد أنفاسها، وهي كالمطرقة المستسلمة التي لا تقدر أن تدفع عن نفسها. ويصرخ الشاعر صرخته المدوية "يا للمنايا كيف أنجو بها"، وكأنه في ميدان معركة يحارب المنايا وكربها محاولاً دفعها عن أمه، لكن هيهات فالمنايا محدقة لا تدع للفرار سبيلاً.

ثم يلوم الشاعر نفسه في أبيات يغلفها الشعور بالذنب والمسؤولية عما آلت إليه الأم، عبر مفارقات ومقابلات تعمق هذه المشاعر، فالأم التي كانت تتحامى وتبتعد عن أن ترى ظلمة أسكنها الشاعر/ابنها في ظلم وليس ظلمة واحدة، وهذه الظلم

مخالفتهن إلا فيما حظره الشرع سبب لدخول الجنة". (كشف الخفاء – إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي – تحقيق: أحمد القلاش - ط ٤ - مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٤٠٥هـ - حديث رقم: ١٠٧٨).

(٦)ديوان الصنوبري - ص٤٤٢.

مطبقة مما يعمق شعور اللوم والمسؤولية في نفسه والضيق والأسى مما آل إليه حالها.

وهذه الأم التي كانت تضيق بعينها الأرض الواسعة أصبحت في حفرة، والمقابلة بين الأرض الشاسعة والحفرة كافية لإبراز تغير الحال لكن الشاعر أضاف كلمة "ضيقة" إلى "حفرة" التي توضح فداحة هذه المفارقة:

مَنْ تَتَحَامَى أَنْ ◌َترَى ظُلْمَةً أَسْكَنْتُهَا فِي ظُلَمٍ مُطْبِقَةْ

وَمَنْ تَضِيقُ الأرضُ في عَينِهَا أَهْدَيتُهَا لِلْحُفْرَةِ الضَّيِّقَةْ

يَا مُهْجَةً جُزْتُ فَضَمَّنْتُهَا مِنَ الثَّرَى غَيرَ الضَّمِينِ الثِّقَةْ

عَلامَ طَابَتْ بِكِ نَفْسِي وَقَدْ عَهِدْتُهَا حَانِيَةً مُشْفِقَةْ؟

ثم ينهي الشاعر هذه البكائية بدعاء لأمه، لكن هذا الدعاء لا يخلو أيضًا من بكاء:

بَكَتْ ثَرَى أَنْتِ بِهِ مُزْنَةٌ عُيُونُهَا بِالدَّمْعِ مُغْرَورِقَةْ

ولا خَلا مِنْ زَاهِرٍ مُشْرِقٍ مُبْتَسِمٍ عَنْ زَهْرَةٍ مُشْرِقَةْ

يدعو لثراها الذي يحتويها أن تبكيه مزنة، وهذه المزنة لها عيون لا يغيب عنها الدمع، فهي مغرورقة به، والشاعر هنا لا يكتفي بمجرد الدعاء بالسقيا لقبرها كما يتردد في كثير من شعر الرثاء؛ فسقيا السحاب لها ههنا ما هي إلا دموع تنسكب على ثراها، ويدعو في ختام رثائه لأمه ألا يخلو هذا الثرى الذي يحتويها من أزهار ـ كما هي العادة عند دفن الأموات ـ ربما لتكون مصدرا من مصادر الرحمة، وربما كذلك لكلفه بالطبيعة حتى في غير الرثاء.